كتاب (الاعتبار)

دراسة في الاجتماع في بلاد الشام بان القرن السادس الهجري

الدكتور عادل جابر صالح

جامعة البلقاء التطبيقية – كلية عمان الهندسة التكنولوجية

قسم العلوم والثقافة

ملخص

ارتأيت ان اقدم لهذا البحث (الاعتبار) لاسامة بن منقذ الكناني (٥٨٤ هجرية) ، دراسة في الاجتماع في بلاد الشام أبان القرن السادس الهجري بمدخل ، عرضت فيه عناصر السكان التي كانت تسكن بلاد الشام بمن فيهم العرب سكان البلاد الأصليين ومن انضاف اليهم من الاتراك والاكراد الى جانب الصليبيين ، كما اشرت الى أهم المصادر والمراجع ثم تحدثت عن المجتمع الاسلامي في بلاد الشام ، فشرحت ظروف المعيشة ، وسجلت فضائله وقيمه ، وبينت ضروب لهوه ومتعه ، وصورت الحركة الفكرية فيه وقد اردفت ذلك بإبراز المعالم الأساسية في حياة الفرنج ببلاد الشام ، فكشفت عن طبائعهم وأخلاقهم ، وذكرت عنايتهم بالفروسية ، ووضحت غاية معرفتهم بالطب ووسائل العلاج . ثم أنهيت البحث بالحديث عن العلاقات التي كانت قائمة بين افراد هذا المجتمع الكبير من مسلمين وصليبيين وما تركته من آثار في حياتهم .

Abstract

I thought of presenting an introduction to this research " al – I' tibaar " written by Osama Bin Monqith 584 of the Hegra: a social life study in Bilaad al– Shaam in the Sixth Century of the Hegra . In this introduction , I demonstrated the types of the inhabitants who used to live in Bilaad al- Shaam including the Arabs , the pioneers , and those who Came after from the Turks , the Kurds togother with the

Crusaders . I also pointed to the most important Sources and references . After that , I talk about the Islamic Society in Bilaad al-Shaam , discussing its living Conditions , recording its virtues and values , showing its kinds of intertainment , and drawing in words the intellictual movement in it . I continued exposing the fundamental features life in Bilaad AL-Shaam .

Whish is represented by inspecting their nature and mordis , mentioning about their interest in chivalry , and showing their knowledge in medicine and ways of treatment . At the end , I finished this research by written about the relations among the members of this enkarged socity , moslems , and crusaders , and the effects of these relation on their life .

مدخل :

ضمَّ المجتمع الكبير في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري اضافة الى العرب عناصر كثيرة ، كان أهمها الأتراك والأكراد ، وكان السلاجقة قد دفعوا بالأتراك الى هذه البلاد على شكل موجات متلاحقة ، ثم تكاثروا حتى غدوا يشكلون ركنا هاما من أركان البناء الاجتماعي [١] . وقد نهض الأتراك بجهاد الصليبيين منذ وطئت أقدامهم ديار الاسلام ، فنوهت المصادر بشجاعتهم ، وصوت بسالتهم ، حتى غدا الصليبيون يرهبونهم من دون غيرهم [٢] . وقد ترك الأتراك لمسات واضحة على الحياة الاجتماعية آنذاك ، إذ أقبل القوم على استخدام غلمانهم في الشؤون العامة [٣] ، وتسرب كثير من ألفاظهم الى اللغة العربية . وأخذ عدد الأكراد يتزايد في بلاد الشام بمجيء الأيوبيين [٤] ، وتوليهم زمام الامور ، حيث تبعتهم جماعات كثيرة ، وقد أبلى هؤلاء بلاء حسنا في جهاد الأعداء .

أما العرب السكان الأصليون لبلاد الشام ، فقد انتشرت قبائلهم في أنحاء متفرقة منها . وكان من أهم هذه القبائل البدوية قبيلة طيء ، التي ظلت تجوب ما بين مصر وفلسطين وجنوب سوريا وكانت قبائل كلاب وعقيل هي الغالبة على المنطقة الواقعة شمال البلاد في حين كان بنو ربيعة يتجولون في المنطقة الواقعة بين البتراء وعجلون ، ثم اتجهوا الى حوران وأضطروا بني فضل ان يتوجهوا الى الشمال . وكانت تسكن في جنوب شرق الأردن قبائل بني كنانة وبني هوبر

وبني خالد ، وعلى مقربة من قلعة الكرك كانت مواطن بني عقبة وبني زهير [٥] . وعلى الرغم من ان العرب فقدوا سلطانهم السياسي في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري – ما عدا بني منقذ في شيزر – فإنهم ظلوا عنصرا فعالا في أحداث العصر ، وشاركوا في جهاد الغزاة ، وصدهم عن ديار الاسلام . فما فتئ الحكام المسلمون يتألفونهم ، ويستنهضون هممهم ، فيستجيبون لهم ، ويلتحقون بالجيوش الاسلامية المجاهدة .

وقد ظل المجتمع الاسلامي في بلاد الشام خلال القرن الهجري سن المذهب بصورة عامة ، حيث حرص الزنكيون والأيوبيون على إشاعة مذهب السنة والجماعة لجمع الناس واستقطابهم على صعيد فكري واحد ، يجنبهم الانقسامات المذهبية التي قد تهدر طاقاتهم وتصرف جهودهم عن مواجهة العدو الصليبي الا ان هذا المجتمع عرف – خلال هذه الفترة – فئات دينية ومذهبية متعددة ، أهمها الاسماعيلية الغلاة ، وقد نشطت أعمال هؤلاء الباطنية في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري واستطار شرهم وكثر فسادهم واضرارهم وعظم خطبهم ، حتى ان العلماء وأهل الدين أحجموا عن الكلام فيهم خوفا منهم ودرءا لشرهم [٦] . وقد قاوم الزنكيون والأيوبيين نشاط هؤلاء الغلاة ، فأبطل نور الدين شعائرهم وانكرها انكارا شديدا ، فساعده على ذلك جماعة من أهل السنة والجماعة [٧] وكان العامة يتحينون الفرص للفتك بالباطنية ، ففي سنة (٥٢٣ هجرية / ١١٩٢ م) خرجت العامة في دمشق عليهم ، ونازلوهم بالسيوف والخناجر وقتلوا منهم خلقا كثيرا [٨] . وذكر ابن جبير ان الناس في الشام قد تعصبوا عليهم ، وانه شاهد جماعة اسلامية تعرف بـ (النبوية) نذرت نفسها للتصدي لهم ، واتباع هذه الطاقة قوم " سنيون يدينون بالفتوة وامور الرجولة كلها ... وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم " [٩] .

وقد انتشر الفرنج الذين غزو بلاد الشام على شكل جاليات صغيرة داخل مدن أو قلاع لم ينعموا فيها بالاستقرار طويلا بسبب الهجمات الاسلامية عليها ،

مما جعل بعضهم يفضل العودة الى بلاده لتأتي بدلا منهم جماعات صليبية جديدة في صور حجاج أو محاربين [١٠] .

وكتاب الاعتبار [١١] الذي نحن بصدده ، والذي دونه اسامة بن منقذ الكناني [١٢] مما خبره وعرفه وعاينه بنفسه " في مذكرات شائعة رائعة قل نظيرها ، من حيث الأمانة في النقل ، والصدق في الرواية ، والدقة في الملاحظة، والنكهة في التعبير في مجمل آداب اللغة العربية " [١٣] . يكاد يكون من أحسن الكتب تصويرا لمناحي الحياة الاجتماعية في بلاد الشام خلال القرن السادس الهجري . يقول فيليب حتّي : " كتاب الاعتبار مرآة تتجلى فيها المدنية الشامية في أجلى مظاهرها ، وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل المعارضة مع المدنية الافرنجية التي قامت الى جانبها " [١٤] . لذا خصصت هذا البحث ليكون دراسة في الاجتماع في بلاد الشام خلال تلك الفترة .

وقد تنوعت مصادر هذا البحث ومراجعة وتعددت : فاضافة الى كتاب (الاعتبار) أُخص بالذكر الكتب التاريخية ، وأهمها كتاب (التاريخ الباهر) لابن الأثير ، وكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لابي شامة المقدسي . ومنها كتب السير والتراجم ، وأشهرها كتاب (معجم الادباء) لياقوت الحموي ، وكتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان . ومنها كتب الرحلات والبلدان ، وأهمها كتاب (رحلة ابن جبير) لأبي الحسين محمد بن أحمد ، وكتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي . بالاضافة الى المعاجم اللغوية وأشهرها كتاب (لسان العرب) لابن منظور ، وكتاب (المعجم الوسيط) لابراهيم مصطفى وزملائه .

أولا – المجتمع الاسلامي :

ظروف المعيشة :

اشارات كثيرة في كتاب الاعتبار تنبيء بما كان يتمتع به سكان المدن وبعض أهل الريف آنذاك من ازدهار اقتصادي ورخاء اجتماعي ، وذلك مما كانوا يمتهنونه من مهن ويزاولونه من أعمال التجارة والصناعة والزراعة وتربية المواشي . ولذلك لا عجب اذا رأينا اسامة يصور لنا شيئا مما كانوا يلبسون من

الثياب والقلنسوات والمناديل المصنوعة من الفراء والحرير والقطيفة والقطن بألوانها الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق [١٥] . اضافة الى ما ذكره عن بعض المنشأت االعمرانية كالحمّامات [١٦] والقصور والحصون التي يستشف منها الفخامة في بنائها والتأنق في إحسان عمارتها [١٧] . وهذا مما ذهب اليه ابن جبير وأكده ، فقد قدم في رحلته صورا متعددة لنشاط المدن الشامية التي كانت تعج بحركة دؤوبة ، وتميزت بكثرة حماماتها [١٨] التي احصى ابن شداد منها ببـاطن مدينة حلب واحدا وسبعين حماما [١٩] ، وعد ابن عساكر منها في مدينة دمشق سبعة وخمسين حماما [٢٠] .

ويقف الدراس لكتاب الاعتبار على كثير من المهن والأعمال التي كان القوم يتعاطونها ، وقد وصف لنا اسامة – أحيانا – بعض أرباب هذه المهن ونوّه بمهارتهم ، مثل الطبيب [٢١] ، والجرائي [٢٢] ، والبيطاري [٢٣] ، والغلصد [٢٤] ، والمجبر [٢٥] ، والفلاح [٢٦] ، والطحان [٢٧] ، والخباز [٢٨] ، والمغربل [٢٩] ، والعلاف [٣٠] ، والحلاج [٣١] ، والجزار [٣٢] ، والحداد [٣٣] ، والاسكاف [٣٤] ، والدباغ [٣٥] ، والطباخ [٣٦] ، والتاجر [٣٧] ، والركابي [٣٨] ، والناسخ [٣٩] ، والحمامي [٤٠] ، والفقاعي [٤١] ، وغيرهم .

وكان للغزو الصليبي بما الحقه بالبلاد من اضرار وللاسماعيلية الباطنية الغلاة الذين استطار شرهم وكثر فسادهم [٤٢] ، أثر فيما كانت تعاني منه بعض فئات الشعب من الفقر المدقع [٤٣] ، فقد وصف لنا اسامة حياة الاعراب في جنوب البلاد ، وما كانوا يعانونه من ملازمة الفقر لهم وتعسر أسباب عيشهم وقلة ذات يدهم ، وخلو بيوتهم مما يقيم أودهم ، واقفارهم مما هو ضروري للحياة . فلدى مغادرة اسامة لمصر في سفارة لدى نور الدين مر على منطقة الجفر [*] ، وفيها قوم من الاعراب : متأخرون في حياتهم الاجتماعية ، بعيدون عن مفاهيم الاسلام، ليس لديهم أي اتصال بحضارة " قد يبست جلودهم على عظامهم . قلت ايش أنتم ؟ قالوا : نحن من بني ابي ، وبنو ابي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون الا الميتة ، ويقولون نحن خير العرب ، ما فينا مجذوم ولا أبرص

ولا زمن ولا أعمى . واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم ... قلت : وكم لكم هنا ؟ قالوا : من عيد رمضان لنا ها هنا ، ما رأينا الزاد بأعيننا . قلت : فمن أين تعيشون ؟ قالوا من الرمة (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونتقوت به " [٤٤] .

ويُحدثنا اسامة في بعض فصول كتابه عن اللصوص والعيارين الذين تفرقوا في البلاد ، وعن قطاع الطرق الذين انتشروا على مفارق الطرقات يرعون المسافرين ويخيفون التجار [٤٥] ، ويضرب الامثلة بقصة الغلام التركي وقصة التجار الذين أنقذهم يونان المكاري النصراني [٤٦] . ولعل أطرف حوادث السطو التي أسهب اسامة في الحديث عنها هي انتشار حوادث سرقة الخيل ، مما يعكس مدى اهتمام الناس بها وحاجتهم اليها حينذاك . فقد أشتهر في المنطقة الشمالية من البلاد لص محترف وكان قد بلغ من العمر عتيا . فصار ذا خبرة ودربة على اللصوصية ، وعرف بلقب الزَّمرَّكل . وحينما نزل صاحب أنطاكية الصليبي على شيزر وعسكر قريبا منها ، دخل الزمر كل معسكرهم ، فسرق (حصانا وترسا ورمحا) وجُرح في فخذه [٤٧] . ويمضي الزمر كل ثانية الى معسكر الصليبيين ليسرق خيلا ، ولكن نزاعا ينشب بينه وبين جندي مسلم كان أتى للسرقة يؤدي الى فشلّه [٤٨] .

ومن نكت سرقة الخيل التي يحدثنا عنها أسامة بأسلوبه الساخر ، أن أحد رجاله خرج ليسرق من خيول الإفرنج الذين عسكروا على كفر طاب ليهاجموها (فأخذ حصانا ركبه وخرج به من العسكر يركض ، وهو يسمع الحسّ خلفه ، ويعتقد أنّ بعضهم قد ركب في طلبه ، وهو مجدّ في الركض والحس خلفه حتى ركض قدر فرسخين والحس معه . فألتفت يبصر ما خلفه في الظلام ، واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقودها وتبعته ، فوقف حتى شدّ فوطته في رأسها وأخذها ، وأصبح عندي في حماة بالحصان والبغلة . وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها) [٤٩] .

وبسبب أجواء الحرب وأحوال العوز والفاقة التي كانت تعاني منها بعض فئات الشعب أرتبط تفكير هؤلاء وعواطفهم باعتقادات روحية ، ولعل ذلك كان نوعا من تسلية النفوس وتعزيتها . ومن أجل ذلك نرى أسامة قد عقد الباب الثاني من كتابه مضمنا فيه أخبار الصالحين وكراماتهم ، إضافة إلى ما أورده في ثنايا الباب الأول من قصص هي ألصق ما تكون بالأساطير [٥٠] . فمن أخبارهم : رؤيتهم للرسول ﷺ [٥١] ، وأن أحدهم رأى عليا رضي الله عنه فبشره الأمام بالشفاء [٥٢] ، وأن أحدهم جاء من مكة ووصل المعرة في اليوم التالي ، فأخبر أحد الناس بوفاة رجل منها (البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه) [٥٣]. أما كرامات الأولياء فكثيرة : فهذا غريب يفك أسيرا [٥٤] ، وملاك يغيث أسامة [٥٥] .

والغريب أن يتجه اسامة هذا الاتجاه ، فيزدرد أخبارا وقصصا يرفضها العقل ، ويقف منها موقف المتشكك ولعل أوضح مثال على ذلك قصة السجين الذي هرب من السجن بوحي من الرسول ﷺ ، وخرج من فتحة في السور دون أن يراه أحد ، وغطى الثلج آثار أقدامه حتى سلم [٥٦] . وكان الاولى بأسامة ان يتسامى فوق هذه الاعتقادات ، وان لا يتشارك العامة والجهلاء فيها .

الفضائل والقيم :

أكثر اسامة من الحديث عن الفضائل والقيم التي كانت سائدة حينذاك : كالشجاعة والفروسية ، والشهامة والنخوة ، والحرص على الشرف ، واحترام المرأة والوفاء والتضحية ، والأنفة والمروءة . ومثل هذه القيم ما أنفك اسامة يشير الى في كل فصل من فصول الكتاب . على ان اهم قيمة اهتم بها واولاها عناية هي الشجاعة فالكتاب يفيض بأمثلة لاحصر لها عن الشجاعة ، اذ كانت من القيم التي يوليها أهل ذلك العصر كثيرا من الاحلال والاكبار . فهم يقدرون الشجاع المقدام وينبذون الرعديد الجبان ، ذلك لان الحرب شغلتهم سنين طويلة ، فقد غزاهم الأوربيون على موجات متتالية ، وفتحوا عليهم جبهات من القتال عديدة .

يروي لنا اسامة قصصا كثيرة عن الشجاعة عن نفسه وعن غيره رجالا ونساء وأفرادا وجماعات ، فيها هو يستقبل جمعا للصليبيين أفامية فيولون الأدبار " ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وانا غر من القتال ، ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، الحق أعقابهم لاطعن فيهم ، ثم احتنّ عنهم " (٥٧) ومن بطولات الرجال ايضا ان رجلا من أصحاب اسامة يقال له همام الحاج " التقى هو ورجل من الاسماعيلية ، لما عملوا على حصن شيزر ، في رواق في دار عمي ... وفي يد الاسماعيلي سكين ، والحاج في يده سيف . فهجم عليه الباطني بالسكين ، فضرب به همام بالسيف فوق عينيه ، فقطع قحف رأسه ووقع مخه على الأرض " (٥٨) .

وتدلنا المذكرات التي كتبها اسامة على ان المرأة كانت تساهم مساهمة فعالة في القتال ، جنبا الى جنب مع الرجل ، فكانت تشكل قوة احتياطية ، وخط دفاع ثان ، ففي إحدى غزوات الاسماعيلية لشيرز نشاهد امرأة عجوز من جواري جد اسامة يقال لها فنون قد " تلثمت في ذلك اليوم ... فأخذت سيفا وخرجت الى القتال ، وما زالت كذلك حتّى صعدنا وتكاثرنا عليهم " (٥٩) . وعن اقدام المرأة يذكر اسامة ان جمعا للافرنج ضل طريقه فدخل شيرز فخرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم ، وكان فيمن خرج " امرأة من نساء اصحابنا يقال لها نضرة ... اخذت افرنجيا أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر . فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج ، فأخذت ما كان معهم وما صلح لها سلبهم ، وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم " (٦٠) .

ويشيد اسامة بدور الأتراك ، والامراء منهم بخاصة في دفع غارات الصليبيين ، فهذه جماعة من الامراء الاتراك نزلوا على كفر طاب " فقاتلوها ، ودخلوا الخرسانية في الخندق ينقبون ، والافرنج قد ايقنوا بالهلاك ، فطرحوا النار في الحصن فأحرقوا (السيوف) ، ووقعت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والاسارى فاحترق الجميع ، وبقي الافرنج معلقين في اعلاه على الحيطان " (٦١) . ثم يصف لنا اسامة اقتحام كفر طاب وما أبداه الأتراك من حسن البلاء " وعلى

البرج جماعة من الافرنج يقاتلون الناس بالنشاب والحجارة فصعد رجل من الأتراك ، ونحن نراه ، ومشى والبلاء يأخذه الى ادنا من البرج ، وضرب الذي عليه بقارورة نفط ، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة اليهم ، وقد رموا نفوسهم الى الأرض خوفا من الحريق . ثم عاد . وطلع اخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس ... ومشى حتى دخل البرج " (٦٢) .

ويسرد لنا اسامة بعض القصص التي تمثل النخوة والشهامة العربية ، فمن ذلك ان عمه سلطان كان قد تزوج امرأة وطلقها ، فوقعت أسيرة في يد الافرنج ، فاشتراها بخمسمائة دينار وسلمها الى أهلها ، قائلا : " ما ادع امرأة تزوجتها وانكشفت علي في اسر الافرنج " (٦٣) ومنه ان اسامة كان قد اتفق هو وبعض الافرنج على افتداء اسيرة مسلمة مع غيرها ، ولكن الأسرى هربوا من يد الافرنجي قبل ان يسدد اسامة الثمن ، فألزمه الافرنجي دفع القيمة كلها ، فدفعها راضيا . قال : " وهان ذلك علي بخلاص أولئك المساكين " (٦٤) .

ولنا ان نتبين قيمة الحرص على الشرف من مراجعة بعض الحوادث التي ذكرها اسامة في مذكراته : فها هي والدته – والباطنية تهاجم شيزر – توزع السلاح على الرجال ، ثم تأخذ ابنتها ، فتلبسها الخف والازرار وتجلسها على روشن مشرف على الوادي ، " حتى اذا رأيت الباطنية قد وصلوا الينا ، دفعتها رميتها الى الوادي ، فاراها قد ماتت ، ولا اراها مع الفلاحين والحلاجين ماسورة "(٦٥) . وهذه رفول ابنة " رجل كردي يقال له أبو الجيش ... قد سباها الافرنج ... وقد رمت بنفسها على فرس الافرنجي الذي أخذها فغرقت " (٦٦) .

وتكشف المذكرات عن الاحترام الكبير الذي حظيت به المرأة عصرئذ ، فقد كانت تبعث القوة والشجاعة في نفوس الأبناء عن طريق التربية الصالحة ، وتحض الرجال على القتال ، وتعنفهم ان هم فكروا بالتخاذل أو الفرار في ساحة القتال . وعن هذا يحدثنا اسامة ، عن رباطة جأش المرأة الشيرزية وثبات جنانها : تغزو الاسماعيلية شيزر ، وتحيط بها حتى تكاد تفتحها ، وتضيق على أهلها الأرض بما ربحت ، ويبلغ الهلع والجزع من نفوسهم مبلغه ، الى الحد الذي فكر

فيه ابن عم اسامة بالهرب ومغادرة الحصن . وبينما هو منكب على أمواله ، يجمعها ليفر بها " واذا انسان قد دخل الدار ، عليه زردية وخوذة ، ومعه سيف وترس ، فلما رآه أيقن بالموت . فوضع الخوذة ، واذا هي ام ابن عمه .. فقالت : أي شيء تريد تعمل ؟ قال : أخذ ما قدرت عليه ، وأنزل من الحصن بحبل ، وأعيش في الدنيا قالت : بئس ما تفعل ، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح ؟ أي عيش يكون عيشك اذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم ؟ أخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل ... ومنعته من الهرب ، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك " (٦٧) . امرأة تشحن بالقوة نفس رجل ، فتحولها من يائسة قانطة الى قوية منتصرة . بمثل هذه المرأة خلق جيل قوي ، صمد في وجه المد الصليبي ، فحق له النصر في النهاية .

وامرأة أُخرى تغضب للاسلام والمسلمين ، فتقتل زوجها لتعاونه مع الصليبيين ثم تلحق بالمسلمين ، يقول اسامة : " انتقل علي بن ابي الريّداء الى خدمة ... صاحب كفر طاب ، فكان ينهض بالافرنج الى المسلمين يغنمهم ، ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم ، حتى قطع سبل المسافرين . وله امرأة معه بكفر طاب تحت يدي الافرنج ، تذكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي . فنفذت احضرت نسبيا لها من بعض الضياع ... واخفته في البيت الى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها ... قتلاه ، واحتملا بجميع مالها . وأصبحت عندنا بشيزر ، وقالت غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر ... ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام " (٦٨) .

وهذه الجارية لؤلؤة ، امرأة عجوز ، كانت قد ربت والد اسامة في بيت جده ، ثم ربته هو في بيت ابيه ، وانتقلت معه الى بيته عندما تزوج ، فكانت خادمته ومربية أولاده . وقد تلطف في اكرامها واحترامها ، واحسن تقديرها ورعايتها ، فأفرد لها بيتا في داره ، وكان يناديها : " يا أمي " (٦٩) .

وكان لفضيلة الوفاء مكانتها حينئذ وقد جسد اسامة هذه القيمة في أكثر من حادثة . فمن ذلك انه كان في شيزر عدد من الجنود الاكراد يدافعون عنها ضد

مهاجميها جنبا الى جنب مع أهلها العرب . وكانت شجاعة هؤلاء واخلاصهم لمن هم في خدمته وتهالكهم على دفع الشر عن ديار الاسلام مثار اعجاب اسامة . يقول : " ومن الناس من يقاتل للوفاء ، فمن ذلك ان رجلا من الأكراد يقال له فارس ، وكان كاسمه فارسا وأي فارس . فحضر ابي وعمي ... وقعة ... فقاتل فارس الكردي قتالا عظيما ... ومازال يقاتل ويجرح حتى اثخن بالجراح ، وانفصل القتال . فأجتاز به ابي وعمي ... وهو محمول بين الرجال ، فوقفا عليه وهنآه بالسلامة . فقال : والله ما قاتلت اريد السلامة ، لكن لكم علي جميل وفضل كثير ، وما رأيتكم في شدة مثل هذا اليوم . فقلت : اقاتل بين ايديكم ، واجازيكم عن جميلكم واقتل قدامكم " [٧٠] .

ويقع الدارس كذلك على فضائل أُخرى ، كان لها في نفوس القوم عصرئذ شأنها وقد سجلها اسامة من خلال أحداثها وأشاد بها مثنيا ومطريا من مثل : الأنفة [٧١] ، والتضحية [٧٢] ، والمروءة [٧٣] .

(٣) وسائل التسلية والترفيه :

ذكر اسامة في مذكراته بعض وسائل التسلية والترفيه التي كان يتخذها القوم آنذاك ، مثل : الصيد ، ولعل كتاب الاعتبار خير مصدر نستطيع بوساطته ان نتعرف على أحوال الصيد ، فقد تضمن الباب الثالث والاخير منه من أخبار الصيد ما لا نستطيع أن نجده في أي كتاب آخر ، وهو باب ربما لم يكن في آداب العربية أنفس منه في موضوعه . فقد تحدث أسامة حديثاً مسهباً مفصلاً عما شاهده وحضره من رحلات الصيد التي كان يقوم بها والده [٧٤] وبعض كبراء عصره من ملوك وأمراء لاشغال نفوسهم والترويح عنها ، مثل : الأتابك زنكي والملك العادل نور الدين محمود [٧٥] والأمير معين الدين [٧٦] ، وذلك في أراضي شيرز [٧٧] وحماة [٧٨] ودمشق وبانياس [٧٩] ونهر العاصي [٨٠] وأنحاء الفرات [٨١] . وخلال حديثه عدد ما كانوا يصطحبونه معهم مما يحتاجون أليه من الحيوانات والطيور الجوارح المدربة على القنص كالخيل [٨٢] والكلاب والفهود [٨٣] والبزاة [٨٤] والصقور [٨٥] والشواهين [٨٦] ، وصور مهاراتهم في صيد ما يصطادون من

الطير والحيوان كالحجل والدراج [٨٧] والوز والحبارى [٨٨] والأرانب والغزلان [٨٩] وحمر الوحش [٩٠] .

وأطال أسامة في الحديث عن وصف صيد والده الذي كان (مشغوفا بالصيد) [٩١]، وذكر أنه كان لهم (بشيرز متصيدان : متصيد للحجل والأرانب في الجبل قبلي البلد ومتصيد لطير الماء والدراج والأرانب والغزلان على ... من غربي البلد) [٩٢]. وقد بلغ من أهتمام والده بطيور الصيد وحيواناته أنه كان يستقدمها من بلاد الأرمن والروم [٩٣] . (وينفذ لهم هو الحصن والطيب من كسوة مصر ، فكان يجيئنا من عندهم بزاة ملاح نادرة) [٩٤] و(كلاب جياد ذكور واناث) [٩٥] . إضافة الى ما كان يبذله من المال والكسوة لأهل الجبل القريب من شيرز لقاء تصيدهم للبزاة وإحضارها له ، فكان الواحد منهم (يعمل له بيتا بحجارة وعلى قدر خلقته ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ويجعل نافذة ، ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها إليه ويخرجه من تلك النافذة . يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح أجنحته فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه . فإذا أحس به الصائد جذب القضيب الى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز وهو قابض للطير الحمام وأنزله إليه وخيط عينيه . ويصبح من الغد يصلنا به يأخذ ثمنه ويعود) [٩٦] فكثرت (البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج) [٩٧] .

ووصف أسامة تعدهم لطيور الصيد وحيواناته ورعايتهم لها ، فقد خصصوا لها أناساً يشرفون على إطعامها وإسقائها وغسلها وإعداد مكان نومها ، حتى مهروا في إصلاحها وعلاجها [٩٨] . وذكر الوقت الذي كانوا يخرجون فيه للصيد ويعودون فيه الى بيوتهم (من بكرة الى بعد العصر) [٩٩] و (نرجع بعد عتمة) [١٠٠] وبعض الشخصيات التي كانوا يصطحبونها معهم لمشاهدة الصيد ، مثل (العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي ... متولي دار العلم بطرابلس) [١٠١] . ومن تمثيله لموكب صيد خرج فيه مع والده وأخوته وفرسانه وأصحابه ومن في خدمتهم من مماليكهم وغلمانهم ، قوله : (كنا نخرج من باب المدينة الى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد حتى الشباك والفؤوس والمجارف والكلاليب لما ينجحر من

الصيد ، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكـــلاب . فـإذا خرجنا من المدينة أدار شاهينين فلا يزالان يدوران على الموكب ، فـــاذا خـرج أحدهما عن القصد تنجح البازيار وأشار بيده الى النحو الذي يريـــده فـيرجع والله الشاهين من وقته الى ذلك النحو) [١٠٢] .

وكان الصيد عندهم يجري بنظام دقيق وترتيب خاص أُعدت له طيور الصيد وحيواناته ودُربت عليه ، يقول : (وصيد الصقور بالترتيب ، يرســل فـي الأول المقدم فيعلق بأذن غزال يضربه ، ويرسل العون بعده فيضـــرب غـزالاً آخـر ، ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك ، ويرسل الرابع كذلك ، فيضرب كل صقر منـها على غزال . فيأخذ المقدم أذن غزال ويفرده عن الغـــزلان ، فـترجع الصقـور جميعها إليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضر بها . وهذه الكلبة تحت الصقـور لا تلفت الى شيء من الغزلان الا ما عليه الصقور . فيتفق أن يظهر العقاب فتحل الصقور عن الغزال ، فيمضي الغزال ، وتدور الصقور ، فكنا نرى تلك الكلبة قـد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور ، وهي تدور تحت الصقور فـي الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة . ولا تزال تدور تحتها حتى تنزل الصقور الى الدّعو ، فحينئذ تقف وتمشي خلف الخيل) [١٠٣] .

ولم يفت أسامة الحديث عن صيد السمك في الأنـــهار بـالطرق الســاذجة البسيطة بالقصبة و الخيط أو باليد ، وقد رسم ذلك بدقة متناهيـــة حتـى ليخيـل للقاريء أنه يشاهد العملية بعينيه [١٠٤] .

ومما يتصل بالصيد أيضا ، وصف أسامة في ثنايا الباب الأول من مذكراته منازلته للحيوانات الضارية وصرعه لها ، وبخاصـــة الأســود [١٠٥] . وإذا كـان أسامة – كما يقول عن نفسه – قد شهد الصيد (سبعين سنة) [١٠٦] من عمـــره ، فإن هذه السنين الطويلة قدمت – كما رأينا – بياناً بعادات الصيد وطرائقه ، إضافة الى أنها أنتجت لنا ثروة من الخبرات والملاحظات المفيـــدة فـي عـالم الصيـد والصيادين . فقد خلقت هذه الممارسة للصيد عنده إلماماً بطبائع الطير والحيـوان ، فمن ذلك أنه رأى (يوما دراجة قد شُقّ جوفها وأُخرجت قانصتها وفيها حية قـــد

أكلتها نحو من شبر . وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حيـة قـد بلعتها صحيحة ... ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيـف) (١٠٧). ورأى من الوزّ السمند حميّة وشجاعة كحمية الرجال وشجاعتهم ، وذلك أننا أرسلنا الطيور على رفّ وزّ سمند ودققنا الطبول فطار ولحقت الصقور تعلّقت بـوزة ... فترحّل من الوز اليها خمسة ستة طيور يضربون الصقـور باجنحتـها . فلـولا نبادرهم كانوا خلصوا الوزة وقصوا أجنحة الصقور بمناقيرهم . وهذا ضد حميـة الحبارى ، فإنها إذا قرب منها الصقر نزلت الى الأرض وكيف دار استقبلته بذنبها فإذا دنا منها سلحت عليه بلت ريشه وملأت عينيه وطارت ، وإن أخطأته بما تفعله به أخذها) (١٠٨) .

ومن ذلك أنه خبر من الأسود ما لم يكن يظنه ، فقد عـرف أن (الأسـد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان) (١٠٩) ، وقد شاهد أسدا يهرب من خروف (١١٠) ورأى كلبا يخلص صاحبه من أسد كان قد جثم عليه (١١١) ويقول : (قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شركني في قتلها أحد ... حتـى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ، فمن ذلك أن الأسد مثل سـواه من البهائم يخاف أبن آدم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ما لم يجـرح فحينئـذ هـو الأسد ، وذلك الوقت يخاف منه ، واذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيـل فلا بد له من الرجوع الى الاجمة التي خرج منها ... وكنت أنا قد عرفـت هـذا بالتجربة ، فمتى حمل على الخيل وقمت في طريق رجوعه قبل أن يجرح ، فـاذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته ، قتلته) (١١٢) . ويقول : (فأمـا النمـور فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعد وثبتها ، وهي تدخـل فـي المغـارات والمجاحر كما تدخل الضباع ، والأسد ما تكون الا في الغابات والآجام) (١١٣) .

وقد أكسبته هذه المزاولة للصيد دقة في الملاحظة وقدرة على التميـيز بيـن الحيوانات التي تبدو متشابهة ، يقول : (والنمر لا يكاد يألف الناس ولا يسـتأنس بهم . وقد كنت مرة مجتازاً بمدينة حيفا من الساحل وهي للإفرنـج ، فقـال لـي إفرنجي منهم : تشتري مني فهذا جيدا ؟ قلت : نعم ، فجاءني بنمر قد رباه حتـى

صار في قذ الكلب ، قلت : لا ، ما لا يصلح لي ، هذا نمر ، ما هو فهد ... والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعيناه زرق ، والفهد وجهه مدور وعيناه سود) [١١٤] .

ويتصل بذلك أيضا خبرته بعالم الخيل ، فقد جاء وصفه لأصنافها وطبائعها وصف خبير عالم (ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار) [١١٥] و (جُرح تحتي حصان على حمص شقت الطعنة قلبه ، وأصابه عدة سهام ، فأخرجني من المعركة ومنخراه يدميان بالدم كالعزلتين ، وما أنكرت منه شيئا ، وبعد وصولي الى أصحابي مات) [١١٦] و (خرجت رددت الناس بالدبوس ، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل وأتلعها ... فضربت حصاني نشّابه في ساقه خمشته ، فوقع بي وقام ، ووقع وأنا أضربه ، حتى قال لي الرجال ... أركب غيره ، فقلت : والله ما أنزل عنه ، فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم أره من غيره) [١١٧] .

وبعد ، فهل نملك الا أن نردد مع فيليب حتي : " ولو ان أسامة عاش اليوم لكان – بلا ريب – عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي ... ولراسل الهلال والمقطم " [١١٨] .

ومن بين وسائل التسلية والترفيه التي تضمنها كتاب الاعتبار وأشار اليها أسامة وكان القوم قد اتخذوها آنذاك تدريباً لهم ألعاب الفروسية ، خاصة بين الأمراء والقادة ، ومن هذه الالعاب سباق الخيول [١١٩] .

وكانت رحلات الاصطياف مما يقوم به خاصة الناس وكبراؤهم عصرئذ ، حيث كانوا يغادرون بيوتهم أيام أشتداد الحر ويخرجون الى الأماكن المعروفة بطيب هوائها طلبا للراحة والاستجمام . وقد ذكر أسامة مرافقته لزوجة عمه وأولادها من شيرز في أيام الحر الى مصياث . قال : (وكان أمرني أن آخذ امرأته وأولاده ... وأمضي أوصلهم الى حصن مصياث ، وهو إذ ذاك له ، وكان يشفق عليهم من حر شيرز) [١٢٠] .

وكانت رياضة الشطرنج قد شاعت بين الناس حينذاك تمرينا لهم [١٢١] ، وقد قدم لنا أسامة صورة طريفة تنبض بالحياة لهذه اللعبة التي كان يزاولها الغلمان في الليل على ضوء السراج [١٢٢] .

(٤) الحركة الفكرية :

على الرغم من توسع الزنكيين ثم الأيوبيين في إنشاء المدارس بهدف تثبيت الهوية الإسلامية لهذه البلاد التي كانت أجزاء منها قد غدت خاضعة لسيطرة أجنبية ، وبهدف اشاعة مذهب السنة والجماعة للوقوف في وجه الفكر الذي بثه الفاطميون في الشام [١٢٣] . فان كتاب الاعتبار يكاد يخلو الا من أشارة واحدة تتصل بدور العلم ومعاهده ، وهي التي ذكر فيها أسامة أساتذه أبا عبد الله الطليطلي النحوي الذي كان (متولي دار العلم بطرابلس) [١٢٤] . ويفهم من كلام أسامة ، ههنا ، أن كبراء القوم كانوا يستقدمون الشيوخ العلماء الى بيوتهم لتعليم أبنائهم وتربيتهم ، قال وهو يصف رحلة صيد : (وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي رحمه الله ، وكان في النحو سيبويه زمانه ، قرأت عليه النحو نحوا من عشر سنين) [١٢٥] . ومن العلماء المربين الذين ذكرهم أسامة وأثنى على تأديبهم له أبن المنيرة ، قال وهو يذكر مناقشته له حول العقل والقتال : " ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بأبن المنيرة ... وكان – رحمه الله – بالعلم أخبر مما هو بالحرب " [١٢٦].

وقد شغف القوم آنذاك بنسخ الكتب [١٢٧] ، كما أهتم سراتهم وشيوخهم وعلماؤهم بتحصيلها وجمعها واقتنائها [١٢٨] ، فانتشرت انتشارا واسعا ، مما ساعد على نشر أضواء المعرفة . فقد كان أسامة الذي أوقف معظم حياته للفروسية والحرب وإعداد الحملات قد فقد الكثير من المال والتحف والنفائس عندما وقعت أسرته بيد الافرنج وهي عائدة من مصر ، فلم يأسف عليها اسفه على ما فقده حينذاك من الكتب الفاخرة وعددها اربعة آلاف مجلد " فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت " [١٢٩] .

واحتفل الشاميون باللغة والنحو ، فقد حدثنا اسامة عن استاذه الطليطلي ، فقال : " دخلت عليه يوما لاقرأ عليه ، فوجدت بين يديه كتب النحو : كتاب سيبويه، وكتاب الخصائص لابن جني ، وكتاب الايضاح لابي علي الفارسي ، وكتاب اللمع ، وكتاب الجمل " (١٣٠) . وتناولت دراستهم كذلك علوم القرآن : قراءاته ، وغريبه ، وناسخه ومنسوخه ، وتفسيره ، وسبب نزوله ، وفقهه (١٣١) . ولعل حرص العلماء على سلامة اللغة بسبب امتزاج الاجناس ، ورغبة الحكام الاعاجم في اتقان لغة التنزيل الكريم كانا من الدوافع الرئيسة الى ذلك . كما كان لديهم اهتمام بعلم النجوم والفلك (١٣٢) .

ويسهب اسامة في الحديث عن صنعة الطب عند الشاميين ، وعن ظهور عدد من الاطباء احكموا اصول صنعتها ، وتميزوا في علمها وعملها ، وكيف ان بعضهم كان يجلس في دكانه الخاص ومن حوله تلاميذه ، لمعالجة من يأتي اليه ويستوصف (١٣٣) . وللدلالة على حذقهم في هذا الميدان نتمثل بالقصة التالية : " كان ليوحنا بن بطلان اصابات عجيبة في الطب ، فمن ذلك ان رجلا اتاه وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه ، فلا يكاد يفهم منه اذا تكلم ، فقال له : ما صنعتك ؟ قال : انا مغربل . فقال : احضر لي نصف رطل خل حاذق ، فاحضره ، فقال : اشربه ، فشربه وجلس لحظة ، فذرعه القيء ، فتقيأ طينا كثيرا في ذلك الخل ، فانفتح حلقه ، واستوى كلامه . فقال ابن بطلان لابنه وتلامذته : لا تداووا بهذا الدواء احدا فتقتلوه ، هذا كان قد علق بالمرىء من غبار الغربلة تراب ما كان يخرجه الا الخل " (١٣٤) .

أرأيت الى ذكاء هذا الطبيب العربي ، ومدى حرصه على افادة تلاميذه ؟ وما اروع ملاحظته لمن يأخذون عنه صنعة الطب : " لا تداووا بهذا الدواء احدا فتقتلوه " .

ثانيا – معالم من حياة الفرنج

يرى أسامة في حديثه عن طبائع الفرنج واخلاقهم أنهم بهائم ، لا فضيلة لهم الا الشجاعة ، كما ان للبهائم فضيلة القوة والحمل [١٣٥] . فهم جفاة غلاظ ؛ ومن طريف ما حدث له اثناء احدى زياراته لبيت المقدس انه دخل المسجد الأقصى ، وصلة في ركن منه ، وعندما رآه علج من الفرنج متوجها الى القبلة ، هجم عليه ورد وجهه الى الشرق قائلا : (كذا صل) وهو ممتقع الوجه ، وقد لحقته رعدة من مشاهدته الصلاة الى القبلة [١٣٦] .

والفرنج لا يفون بعهد ، فخلال إحدى الهدن بينهم وبين المسلمين طلب صاحب انطاكية من عم لأسامة حصانا ليسابق به ، فأرسل له الحصان ومعه رجل كردي ، سابق بالحصان فسبق واحرز القصب ، فسر صاحب انطاكية بذلك ، وكانت فرصة للكردي ان يطلب منه عهدا بأن يخلي سبيله ان هو وقع اسيرا في ايديهم فوافق صاحب انطاكية . ولكن انى لهذا العلج ان يبر بعهده ، فقد شاءت الاقدار ان يقع الكردي المسكين في الأسر ، فيتنكر صاحب انطاكية لعهده وأمانه ، ويأمر معذبي الاسير ان يقلعوا عينه اليمنى وكانوا قد ارادوا قلع اليسرى ، حتى اذا حمل الترس استترت عينه اليسرى فلا يعود يبصر شيئا [١٣٧] .

والفرنج لا يألفون لغير جنسهم ، ومن ذلك ان غنيمة من السبايا الصليبيات ساقها الله وصلت الى دار والد اسامة " فرأى منهم جارية مليحة شابة ، فقال لقهرمانة داره : ادخلي هذه الحمام ، واصلحي كسوتها ، واعملي شغلها للسفر ، ففعلت . وسلمها الى بعض خدامه ، وسيرها الى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه ، وكتب اليه يقول : غنمنا من الافرنج غنيمة ، قد نفذت لك سهما منها . فوافقته واعجبته واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران ، فجعله ابوه ولي عهده ، وكبر ومات والده . وتولى بدران البلد والرعية وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوما وتدلت من القلعة بحبل ، ومضى بها أولئك الى سروج وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بإفرنجي إسكاف ، وإبنها صاحب قلعة جعبر " [١٣٨] .

والاسرة عند الفرنج لا تكاد تجمع أفرادها أية آصرة من أواصر الود والمحبة التي تربط ما بين أفراد الاسرة العربية الاسلامية ، فعندما كان أسامة في زيارة لبلاد الفرنج في وقت من أوقات السلم ، اجتمع بفارس منهم حديث العهد بالبلاد الشرقية وانعقدت بينهما صلة مودة ، وكان قد اتى ليحج ، ولما عزم على التوجه الى بلاده طلب من أسامة ان يرسل ابنه معه ليتعلم العقل والفروسية ، فقال له اسامة : ان جدته تحبه كثيرا ، وقد استحلفتني ان ارده اليها . فعجب الفارس لهذه الحميمة ما بين الأب والابن والجدة ، وسأل : (وامك تعيش ؟) فقال أسامة : نعم . قال الفارس : (لا تخالفها) [١٣٩] .

والاحتفالات بالاعياد كانت تجري بمراسيم متأخرة عند الفرنج ، يقول اسامة : " حضرت بطبرية في عيد من اعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان اوقفوهما في رأس الميدان ، وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها ، والعجائز ، والعجائز يقمن ويقعن على كل صخرة حتى سبقت واحدة منهن ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها " [١٤٠].

وكانت المحاكمات عند الصليبيين تجري بصورة وحشية ، ان دلت على شيء فإنما تدل على تأخر اجتماعي وغباء مطبق : فهم ياخذون بالشبهة والظنة ان لم تتوفر البينة [١٤١] ، او يجرون للمتهم عملية تغطيس في الماء ؛ فإن رسب فهو بريء ، وان طفا البس التهمة [١٤٢] ، وقد يطلب الملك الى عدد من الفرسان ان يحكموا في قضية من القضايا ، ورأيهم غير قابل للاستئناف او الرد [١٤٣] .

والغيرة الجنسية مفقودة عن الصليبيين : (ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلالها مع المتحدث ومضى) [١٤٤] . وكان أسامة يتردد أيام السلم على مدينة نابلس ، وينزل عند رجل يبدو من أسمه (معز) أنه مسلم (داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح على الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق

الآخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجار ... فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش ، فقال له : أي شيء أدخلك الى عند امرأتي ؟ قال : كنت تعبان ، دخلت استريح . قال : فكيف دخلت الى فراشي ؟ قال : وجدت فراشا مفروشا نمت فيه . قال : والمرأة نائمة معك ؟ قال : الفراش لها ، كنت اقدر أمنعها من فراشها ؟ قال : وحق ديني ان عدت كذا ، تخاصمت أنا وأنت . فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته) [١٤٥] . ومن ذلك ما شاهده اسامة في المعرة من افرنجي اصطحب امراته الى الحمام ليحلق عانتها [١٤٦] ، ومن فتاة أخرى اصطحبها ابوها لتستحم مع الرجال في حمام بمدينة صور [١٤٧] .

ويعجب أسامة لهؤلاء القوم ، حتى ليقول : (فأنظروا الى هذا الاختلاف العظيم ، ما فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة فيهم . وما تكون الشجاعة الا من النخوة والأنفة من سوء الاحدوثة) [١٤٨] .

وقد حدثنا اسامة عن تقرير الفرنج للفروسية ، حين نوه به الملك الصليبي قائلا : " يا فلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما . قلت : الله يفرح الملك ، بماذا فرحت ؟ قال : قالوا لي أنك فارس عظيم " [١٤٩] .

ومن تبجيل الفرنج للفروسية أنهم كانوا يقدمون الفرسان ، ويعدونهم أرباب الرأي . فليس (عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا الفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان ، فهم أصحاب القضاء والحكم) [١٥٠] . وقد شكا اسامة صاحب بانياس الى الملك الصليبي ، في غنم كان قد اخذها لهم : (فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : قوموا اعملوا حكما ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم فامره الملك بالغرامة ، فتوسل الي وتقل علي وسألني حتى أخذت منه اربع مائة دينار . وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي يغيره ولا ينقضه . فالفارس أمر عظيم عندهم) [١٥١] .

وبالرغم من المساوئ التي يذكرها أسامة عن الفرنج من الجهل والتأخر وعدم الغيرة على النساء ، فإن ما اتسم به من موضوعية وامانة جعله ينصفون حيث ينبغي الانصاف ، فالفرنج (ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة) [١٥٢] ، فهذا فارس منهم يهزم اربعة من فرسان المسلمين [١٥٣] ، وآخر يحمل على عسكر للمسلمين حتى يتوسطهم ، فيقتلوا حصانه ، ويثخونه بالجراح ، فيقاتل وهو راجل حتى يصل الى اصحابه [١٥٤] ، وثالث يطعن (فارسا من أجنادنا ... قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن ، وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ، ومات لساعته) [١٥٥] ورابع يتطوع في عملية فدائية للاستيلاء على مغار في الجبل [١٥٦] .

وقد ظل أسامة في كل أحاديثه عن الفرنج موضوعي النزعة صادق الرواية ، فلم يظلمهم رغم انهم اعداؤه . ومن ذلك حديثه عنهم في مجال الطب ، فقد روى لنا اسامة – ههنا – قصتين ، احداهما تدل على جهلهم بالطب ، وان طبهم كان ساذجا سقيما بالمعارضة مع الطب العربي الذي مثله ثابت وابن بطلان ، وقد سردها بأسلوب قصصي ممتع ابدع فيه كل الابداع . مما يدل على اتقان اسامة لهذا الفن [١٥٧] . قال : " ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه انقاذ طبيب يداوي مرضى من اصحابه ، فأرسل له طبيبا نصرانيا يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : احضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي ، فقال لهم : هذا ما يعرف شيء يداويهم . وقال للفارس : أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة قال : احضروا لي فارسا قويا وسيفا قاطعا ، فحضر الفارس الفأس وانا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب ، وقال الفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة في

رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى وشق في رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها " (١٥٨) .

ثم لا يلبث أسامة ان يردف هذه القصة بأخرى ، تبرو الوجهة الفضلى من طب الافرنج . قال : " وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان الملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ... من ألعن الفرنج وأرجسهم فرمحه حصان في ساقه ، فعملت عليه رجله ، وفتحت في اربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح وضع ، وأنا ادعو بهلاكه ، فجاءه طبيب افرنجي ، فأزال عنه تلك المراهم ، وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح ، وبرأ ، وقام مثل الشيطان " (١٥٩) .

ثالثا – التأثر والتأثير

ولعله قد تبين مما تقدم ان العلاقات بين المسلمين وبين الصليبيين لم تكن مقصورة على ميدان القتال ، فقد كان الاتصال السلمي قائما بين الجانبين ، ويسمح لكل طرف ان يدخل بلد الآخر (١٦٠) . وقد دهش ابن جبير مما شاهده من هذه الأحوال في بلاد الشام ، واعتبر ذلك من عجائبها (١٦١) . وقد نقل اسامة ، كما تقدم من صفحات هذا البحث ، كثيرا من مشاهداته في البلاد المحتلة التي تجول فيها ، وبخاصة في نابلس (١٦٢) والقدس (١٦٣) وحيفا (١٦٤) وعكا (١٦٥) . وذكر ان ثمة صداقات كان قد ارتبط بها مع بعض الفرنج ممن يحفظون الود والعشرة (١٦٦) ، على الرغم من ان الفرنج – عموما – في رأيه شياطين (١٦٧) ، ولم يتردد في استنزال لعنة الله عليهم (١٦٨) ، والدعوة عليهم بالخذلان (١٦٩) ، وتطهير الدنيا منهم (١٧٠) .

ونتيجة لهذا الاحتكاك بهرت المدنية الاسلامية الفرنج ، فعرفوا نظام الحمامات (١٧١) ، وسعى بعضهم ممن (تبلدوا وعاشروا المسلمين) الى احتذائهم في بعض مناحي حياتهم وبخاصة في مآدبهم ومآكلهم ، حتى ان بعضهم تورع عن

اكل لحم الخنزير . ومن ذلك ان اسامة كان قد ارسل صديقا لـــه الـــى صـــاحب انطاكية ، وكانت بينهما صداقة ، في شغل ، فقال صاحب انطاكية لصديقه يومـــا : " قد دعاني صديق لي من الافرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم ؟ قال : فمضيت معه ، فجئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجـــوا مـــن أول خـــروج الافرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والجودة . ورآني متوقفا عن الاكل ، فقـــال : كل طيب النفس ، فأنا مآكل من طعام الافرنج ، ولي طباخات مصريات ، ما آكـل الا من طبيخـــهن ، ولا يدخـــل داري لحـــم خـــنزير ، فـــأكلت وانـــا محـــترز وانصرفنا " [١٧٢] .

وكان من نتيجة امتزاج امم شتى واختلاط ثقافات مختلفة من فارسية وتركية وافرنجية في بلاد الشام آنذاك ان تأثرت لغة القوم ، فتسربت اليها كثير من الألفاظ والأساليب العامية ، مثل قول اسامة : " وتموا يطردونـــهم " [١٧٣] أي : مـــازالوا يطردونهم ، وقوله " مالك ياريس ؟ " [١٧٤] أي : مالك يا رئيس ؟ وقوله : " ايـــش انتم ؟ " [١٧٥] أي : أي شيء انتم ؟ وغيرها . كما دخلتها كثير من المصطلحـــات الأعجمية المعربة ، والتي ان دلت على شيء فانمـــا تـــدل علـــى انتشـــار هـــذه المصطلحات بين الناس وصقل السنتهم لها والف اسماعهم لألفاظـــها ، والا لمـــا استعملها اسامة هذا الاستعمال الواســـع ، ومثالـــها " الدامـــا " الافرنجيـــة وهـــي Madam وسقلاطون اليونانية أي الثياب الكتانية الموشاة ، وكزاغند الفارسـية أي السترة السميكة التي تقوم مقام الدرع في القتال ، ويرق وهي يـــراق التركيـــة أي السلاح [١٧٦] .

وقد وجد مثل ذلك في كتابات نثرية اخرى تعود الى ذلك العصر ولا ســيما في الكتابات التاريخية ، مما يدعو المهتمين بالدراسات اللغوية الى تنـــاول هـــذه الظاهرة بالاستقصاء والبحث والتحليل ، لانها تعين على بناء معجم لغوي تـــاريخي للغة العربية ، كما تلقي الضوء على كثير من الصيغ العامية المستعملة في أيامنـــا هذه .

هوامش البحث

(١) د. شاكر مصطفى : دخول الترك الغز الى بلاد الشـــام ، ضمـــن كتـــاب (مؤتمر بلاد الشام : تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشر ص ٣٠٣ ، ط بيروت ١٩٧٤) .

(٢) انظر : عز الدين بن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بـــالموصل ص ٨٠ ، تحقيق عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنـــى ، القاهرة وبغداد ١٩٦٣ . أبو شامة المقدسي ، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ ق٢ ص٤٦٠ ، تحقيق محمد حلمـــي ، المؤسســـة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٢ . ابن واصل جمال الدين محمد ، مفرج الكروب في اخبار ملوك بني ايـــوب ج١ ص١٣٠ ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، دار احيـــاء الـــتراث القديـــم ، القاهرة ١٩٥٣ .

(٣) ابو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ج١٣ ص٧٢ ، تحقيق د. احمد ابو ملحم واخرون ، دار الكتب العلمية بيروت ط٣ ١٩٨٧ .

(٤) أصل الايوبيين من الاكراد الروادية ، وهذا القبيل مـــن أشـــرف الأكـــراد (الباهر ص ١١٩ - ١٢٠) .

(5) J.Prawer , Social Classes in the Crusader States : The Minorities , in K. M . setton(ed) Ahistory of the Crusades , Vol I , P .64 .

(*) شيرز : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماة يـــوم في وسطها نهر العاصي عليه قنطرة في وسط المدينة . ياقوت الحمـــوي ، معجم البلدان ، دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٧ . وانظر : كتاب الاعتبار ص ت ، تحرير فيليب حتـــي ، مطبعـــة جامعـــة برنستون ، الولايات المتحدة ١٩٣٠ .

(٦) أنظر : ابن القلانسي أبو يعلى حمزة بن أسد ، تاريخ دمشق ص٣٤٢ و٣٥٣ – ٣٥٥ و ٤٧٠ و ٥٣٤ . تحقيق د. سهيل زكار ، دار حسان ، دمشق ١٩٨٣ . أبن قاضي شهبة تقي الدين أبو بكر بن أحمد الكواكب الدرية ص ٩١ و٩٤ – ٩٥ و١٣٠ ، تحقيق د. محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ .

(٧) أبن القلانسي ص ٤٦٨ . الكواكب الدرية ص ١٣٠ . نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي – ٥٦٩ هـ أنظر أخباره مفصلة في كتاب : الكواكب الدرية في السيرة النورية .

(٨) أبن القلانسي ص ٣٥١-٣٥٦ ، الكواكب الدرية ص ٩٤ – ٩٥ .

(٩) أبو الحسين محمد بن أحمد ، رحلة أبن جبير ص٢٥٢ ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٠ .

(١٠) د. أحمد رمضان ، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ص ٢٣٩ ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية ، القاهرة ١٩٧٧ .

(١١) تتضح تسمية المؤلف له كذلك مما أورد فيه من أحاديث وقصص ، يرجى منها أن يعتبر القاريء بما حل بغيره ليفيد هو نفسه . والعظة من ذلك هي الأيمان بالأجل والقضاء والقدر الذي ظل يصاحب أحداث الكتاب من أولها الى آخرها ، حتى لنراه في كل صفحة ، بل في كل رواية . أنظر ، مثلا : ص ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٦٩ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٤٥ ، ١٤٧ . ومن الجدير بالذكر ان الكتاب ترجم ونشر كاملا أربع مرات ، هي :

أ – ترجمة درانبورغ من العربية الى الفرنسية ونشر في باريس ١٨٩٥م ، وفي ليدن ١٨٨٤م .

ب – ترجمة شومان من الفرنسية الى الألمانية ، وطبع في انسبروك ١٩٠٥م .

ج – ترجمة سالية الى الروسية بتقديم كراتشكوفسكي وتعليقه ، وطبع في نبدوغراد ١٩٢٢م .

د – د. ترجمة فيليب حتي من العربية الى الانجليزية ، وطبع في نيويورك ١٩٢٩م .

أما الطبعة العربية فقد طبع للمرة الاولى سنة ١٩٣٠م ، في مطبعة جامعة برنستون الأمريكية ، بأشراف الدكتور فيليب حتي وتحقيقه . انظر : محمود الشرقاوي ، الاعتبار ص١١٧ ، الهلال ، عدد ٩ ، ١٩٦٨ . جاسر أبو صفية ، كتاب الاعتبار ص ٨٩ – ٩٠ ، الجامعة – عدد ٣ ، ١٩٦٨-١٩٦٩ .

(١٢) هو الأمير مؤيد الدولة ، أبو المظفر وأبو الحارث ، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني (٤٨٨ – ٥٨٤ هـ) . وآل منقذ ملوك شيرز بأطراف حماة ، ليس فيهم الا الفارس الشجاع والجواد الشهم والشاعر الأديب . ولد المترجم له بقلعة شيرز ، يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة . كان من أبرز أهل بيته فضلا وعلما ، ضمت مكتبته ما يربو على أربعة الآف كتاب . وهو من مشاهير أبطال الإسلام ، قاد عدة حملات ضد الصليبيين في فلسطين . سكن دمشق مدة ، فكانت داره معقلا للفضلاء وموئلا للعلماء . أنتقل الى مصر أيام الظافر ووزيره أبن السلار ، فبقي فيها مؤمرا مشارا إليه بالتعظيم ، ثم عاد الى دمشق وسكنها . ورماه الزمن الى (حصن كيفا) فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق ، فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين . توفي بدمشق يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان ، ودفن ثاني يوم وفاته في السفح الشرقي من جبل (قاسيون) . له آثار عديدة في الأخبار والأدب والنظم ، منها: الاعتبار ن ولباب الآداب ، والمنازل والديار ، والبديع في نقد الشعر ، وديوان شعره . أنظر أخباره ومصادر ترجمته مفصلة : د. عادل جابر صالح محمد ، شعر ابن القيسراني : جمع وتحقيق

ودراسة ص٢٠٩ ، الوكالة العربية للنشر والتوزيع بالزرقـــاء – الأردن ، الطبعة الاولى ١٩٩١ .

(١٣) فيليب حتي ، مقدمة كتاب الاعتبار ص ب .

(١٤) نفسه ص ت .

(١٥) الاعتبار ص ٤٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ١٥٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ .

(١٦) نفسه ص ١١٥ ، ١٢٦ .

(١٧) نفسه ص ٧٨ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٢٩ .

(١٨) أنظر: رحلة أبن جبير ص ٢٢٤ ، ٢٢٧ – ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ – ٢٤٤.

(١٩) ابن الشحنة ابو الفضل محمد بن محمد ، الدر المنتخب في تاريخ مملكـــة حلب ص١٣٣ ، تحقيـــق يوســـف بـــن ســـركيس الدمشـــقي ، المطبعـــة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٠٩ .

(٢٠) الحافظ بن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، خطط دمشـــق م١/٢ ص١٩٢ ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٥٤ .

(٢١) الاعتبار ص ١٠٤ ، ١٨٣ ، ١٨٥ .

(٢٢) نفسه ص ٥٢ ، ٥٥ ، ١٠٤ .

(٢٣) نفسه ص ١١٨ .

(٢٤) نفسه ص ١٤٦ .

(٢٥) نفسه ص ١١٤ .

(٢٦) نفسه ص ٥١ ، ١١١ ، ١٥٣ ، ٢١٠ .

(٢٧) نفسه ص ١٠٥ .

(٢٨) نفسه ص ١٧٩ .

(٢٩) نفسه ص١٨٤ .

(٣٠) نفسه ص ١٦٠ . العلاف : بائع الشعير والتبن .

(٣١) نفسه ، ص ١٢٤. الحلاج : نادف القطن ومستخرج الحب منه (ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، لسان العرب ، المؤسسة المصرية العامة للنشر ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق) .

(٣٢) نفسه ، ص ١٠٥.

(٣٣) نفسه ، ص ١٣٨ .

(٣٤) نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣٥) نفسه ، ص ٨٢ .

(٣٦) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٣٧) نفسه ، ص ١٤٠ ، ١٨٢ .

(٣٨) نفسه ص ١١٧ ، ١٤٣ .

(٣٩) نفسه ، ص ٥٣ ، ٢٠٨ .

(٤٠) نفسه ، ص ١٣٦.

(٤١) نفسه ، ص ١٧٧ . الفقاعي : بائع الفقاع :شراب من الشعير يعلوه الزبد .

(٤٢) نفسه ، ص ١١٦ ، ١٢٣ - ١٢٥ ، ١٥٩ ، ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤٣) أنظر : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١ ، دار الجيل بيروت ، مصور عن طبعة مصر ١٢٨٨ هـ .

(*) الجفر : موضع بناحية ضرية (معجم البلدان) ، وهو اليوم واحة في الصحراء الأردنية ، تقع الى الشمال الشرقي من معان . د. يوسف غوانمة ، شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الاولى : القسم السياسي ص٣٨ ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، ١٩٧٩ .

(٤٤) الاعتبار ص ١٢ . وأنظر : ص ٢٧ - ٢٨. مجذوم : الذي أصابه الجذام ، وهو من الأمراض المعدية . زمن : مبتلى بعاهة مستديمة , القطف : بقل سنوي من السرمقيات ، يطبخ ورقه .

(٤٥) نفسه ص١١ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ١٣٨ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

(٤٦) نفسه ، ص ٧٩ - ٨٠ . وأنظر : محمود الشرقاوي ، ص ١٢١ .

(٤٧) نفسه ، ص٤٣ – ٤٤ . أنطاكية . بتخفيف الياء : قضية العواصم من الثغور الشامية ، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير (معجم البلدان) .

(٤٨) نفسه ، ص ٤٤ – ٤٥ .

(٤٩) نفسه ، ص ٤٥ . كفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب ، في برية معطشة ، تجمع مياه أمطارها في صهاريج (معجم البلدان) . الفرسخ : ثلاثة أميال ويساوي ٥٥٤٤ مترا . أنظر : مهجم البلدان . فالتر هنتس ، المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٩٤ ، ترجمة د. كامل العسلي ، نشر الجامعة الأردنية . محمد ضياء الدين الريس . الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص٢٩٩ ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦١ .

(٥٠) نفسه ، أنظر ص١٥ مثلا .

(٥١) نفسه ، ص ٩٤.

(٥٢) نفسه ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .

(٥٣) نفسه ، ص ٧٢ – ٧٣ . المعرة : هي معرة النعمان ، مدينة كبيرة قديمة مشهورة ، من أعمال حمص ، بين حلب وحماة (معجم البلدان) .

(٥٤) نفسه ، ص ٩٢ .

(٥٥) نفسه ، ص ٩٣ .

(٥٦) نفسه ، ص ٩٤ . وانظر جاسر أبو صفية ، ص ٩٣ .

(٥٧) نفسه ، ص ٤١ . افامية : مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص (معجم البلدان) .

(٥٨) نفسه ، ص ١١٦ .

(٥٩) نفسه ، ص ١٢٥ .

(٦٠) نفسه ، ص ١٢٩ .

(٦١) نفسه ، ص٧٣ . ما بين القوسين (السيوف) هكذا في الاصل ، ولا يستقيم المعنى بها ، وهي بالتأكيد السقوف .

(٦٢) نفسه ، ص ٧٤ – ٧٥ .

(٦٣) نفسه ، ص ٧١ .

(٦٤) نفسه ، ص ٨٢ .

(٦٥) نفسه ، ص ١٢٤ – ١٢٥ . الروشن : الرف والكوة .

(٦٦) نفسه ، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

(٦٧) نفسه ، ص ١٢٤ . زردية : درع من الزرد .

(٦٨) نفسه ، ص ١٢٨ .

(٦٩) نفسه ، ص ١٨٦ .

(٧٠) نفسه ، ص ٩٥ – ٩٦ . وانظر ص ٨٠ .

(٧١) نفسه ، ص ٣٧ .

(٧٢) نفسه ، ص ٥٣ .

(٧٣) نفسه ، ص ٧٩ .

(٧٤) نفسه ، ص ١٩٩ .

والد اسامة : مجد الدين ابو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ٤٦٠ – ٥٣١هـ ولد بحلب ، كان شديد البأس والنجدة في الحرب ، صديقا لبلدوين ملك القدس ، عالما بالعربية والكتابة والشعر ، حافظا للقرآن حسن التلاوة له ، كثير الصوم ، له معرفة بالنجوم واسمائها . تحدرت اليه امارة شيزر من اخيه ابي المرهف نصر ، فتنازل عنها لاخيه الاصغر ابي العساكر سلطان . توفي بقلعة شيزر يوم الاثنين الثامن من رمضان ، ودفن في داره . انظر اخباره ومصادر ترجمته مفصله في : شعر ابن القيسراني ، ص٢٩١ .

(٧٥) نفسه ، ص ١٩١ . الاتابك زنكي : هو الملك المنصور ابو المظفر وابو الجود زنكي بن آقسنقر بن عبد الله ٤٧٧-٥٤١هـ ، مولده بحلب ، له اثر

عظيم في جهاد الفرنج ومقاومة الروم . انظر اخبـــاره ومصادرترجمتـــه مفصلة في : شعر ابن القيسراني ص١٤٧ .

(٧٦) نفسه ، ص ١٩٦ . وانظر ص ٢٢٥ . معين الدين : أنر بن عبـــد الله ، مملوك أتابك طغتكين ، كان صاحب دمشق نيابة عن اولاد طغتكين ، توفي سنة ٥٤٣ هـ . انظر : سبط بن الجوزي ، مرآة الزمـــان فـــي تـــاريخ الاعيان ج٨ ق١ ص٢٠٣ ، دائرة المعارف العثمانيـــة ، حيـــدر آبـــاد ، ١٩٥١ .

(٧٧) نفسه ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٩٩ ، ٢١٤ .

(٧٨) نفسه ، ص ١٩٧ .

(٧٩) نفسه ، ص ١٩٣ .

(٨٠) نفسه ، ص ١٩٣ .

(٨١) نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٨٢) نفسه ، ص ٢٢٥ .

(٨٣) نفسه ، ص ٢١١ ، ٢٢٥ .

(٨٤) نفسه ، ص ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١١ .

(٨٥) نفسه ، ص ٢١١ ، ٢٢٥ .

(٨٦) نفسه ، ص ١٩٢ ، ٢١١ .

(٨٧) نفسه ، ص ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ .

(٨٨) نفسه ، ص ٢١٧ .

(٨٩) نفسه ، ص ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ .

(٩٠) نفسه ، ص ١٩٣ ، ٢٢٠ .

(٩١) نفسه ، ص ١٩٢ .

(٩٢) نفسه ، ص ١٩٩ .

(٩٣) نفسه ، ص ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ .

(٩٤) نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٩٥) نفسه ، ص ٢١٢ .

(٩٦) نفسه ، ص ٢٠٠ .

(٩٧) نفسه ، ص ٢٠١ .

(٩٨) نفسه ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .

(٩٩) نفسه ، ص ٢١٤ .

(١٠٠) نفسه ، ص ٢٠١ ، ٢٠٥ .

(١٠١) نفسه ، ص ٢٠٨ . انظر : ص ٢١٥ ، ٢٢٠ .

(١٠٢) نفسه ، ص ٢١١ .

(١٠٣) نفسه ، ص ٢٢٥ .

(١٠٤) نفسه ، ص ٢١٨ – ٢١٩ .

(١٠٥) نفسه ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ .

(١٠٦) نفسه ، ص ٢٢٦ .

(١٠٧) نفسه ، ص ٢٢٦ .

(١٠٨) نفسه ، ص ٢١٧ .

(١٠٩) نفسه ، ص ١٠٦ .

(١١٠) نفسه ، ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(١١١) نفسه ، ص ١٠٧ .

(١١٢) نفسه ، ص ١٠٩ .

(١١٣) نفسه ، ص ١١٠ .

(١١٤) نفسه ، ص ١١١ .

(١١٥) نفسه ، ص ٩٦ .

(١١٦) نفسه ، ص ٩٧ . العزلاء : مصب الماء من القربة ونحوها .

(١١٧) نفسه ، ص ٩٨ . الدبوس : عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس . الأتلع : الطويل القامة والعنق .

(١١٨) مقدمة محرر كتاب الاعتبار ، ص . ت .

مكتبة قسم كلية

(١١٩) الاعتبار ، ص ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٧ .

(١٢٠) نفسه ، ص ١٤٨ . مصياث : في معجم البلدان : مصياب ، حصن حصين مشهور بالساحل الشامي قرب طرابلس ، بعضهم يقول مصياف .

(١٢١) د. شفيق محمد الرقب ، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري ، ص ١٨٩ ، دار صفار للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٩٣ .

(١٢٢) الاعتبار ، ص ٢٢٥ . وانظر ص ١٤٥ .

(١٢٣) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري ، ص ٣٨ .

(١٢٤) الاعتبار ، ص ٢٠٨ . أبو عبد الله الطليطلي : لم أعثر على ترجمة ، مع شدة طلبي ذلك .

(١٢٥) نفسه ، ص ٢٠٨ .

(١٢٦) نفسه ، ص ٨٥ . ابن المنيرة : محمد بن يوسف بن عمر بن علي الكفر طابي ، ابو عبد الله النحوي ، اديب ، نزيل شيزر . نسبته الى كفر طاب بين المعرة وحلب ، سمع الحديث على ابي السمح الحنبلي . له كتب منها : غريب القرآن ، ونقد الشعر ، وبحر النحو الذي نقد فيه مسائل كثيرة من اصول النحويين . مات في رمضان سنة ٥٥٣هـ . انظر : ياقوت الحموي ، معجم الادباء ج١٩ ص١٢٢ ، ط دار المأمون . جلال الدين السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص١٢٤، ط مصر ، ١٣٢٦ هـ .

(١٢٧) نفسه ، ص ٥٣ ، ١٩٢ ، ١٩٩، ٢٠٨ .

(١٢٨) الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري ، ص ٤١ .

(١٢٩) الاعتبار ، ص ٣٥ .

(١٣٠) نفسه ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ . سيبويه : ابو بشر عمرو بن عثمان ، امام النحاة ، توفي سنة ١٨٠هـ انظر : الزبيدي ، طبقات النحويين ص٦٦ – ٧٤ ، ط مصر ١٣٧٣هـ . الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج١٢

ص١٩٥ ، ط مصر ١٣٤٩ هـ . خير الدين الزركلي ، الاعلام ج٥ ص٢٥٢ ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٩ . ابن جني : ابو الفتح عثمان بن جني الموصلي ، من ائمة الادب والنحو ، توفي ببغداد . انظر : الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ٧٧ ، ط دمشق ، ١٣٠٣ هـ . أبو علي الفارسي : الحسن بن احمد ، احد الائمة في علوم العربية ، توفي ببغداد سنة ٣٧٧ هـ . انظر : علي بن يوسف القفطي ، انباه الرواة على انباه النحاة ، ج ١ ، ص ٢٧٣ ، ط مصر ، ١٣٦٩ هـ . كتاب اللمع لبن جني . كتاب الجمل اللزجاجي او للجرجاني : ابو لقاسم عبد الرحمن بن اسحق ، اسحق ، شيخ العربية في عصره ، ولد في نهاوند ، وتوفي في طبرية (الاعلام ، ج ٤ ، ص ٦٩) . والجرجاني : ابو بكر عبد القاهر الجرجاني ، واضع اصول البلاغة ، وكان من أئمة اللغة . انظر : بغية الدعاة ، ص ٣١٠ ، والبافعي ، مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ١٠١ ، طبع حيدر آياد ، ١٣٣٧ هـ .

(١٣١) نفسه ، ص ٥٣ .

(١٣٢) نفسه ، ص ٥٦ .

(١٣٣) نفسه ، ص ٥٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

(١٣٤) نفسه ، ص ١٨٤ . ابن بطلان : ابو الحسن المختار بن الحسن ، طبيب باحث ، توفي بانطاكية . انظر : احمد بن القاسم بن ابي اصبيعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ج ١ ، ص ٢٤١ – ٢٤٣ ، ط مصر ، ١٢٩٩ هـ القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكملء ، ص ١٩٢ – ٢٠٧ ، ط مصر ، ١٣٢٦ هـ ، محمد راغب الطباخ الحلبي ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج٤ ، ص ١٩١ ، ط حلب ، ١٣٤٢هـ .

(١٣٥) نفسه ، ص ١٣٢ .

(١٣٦) نفسه ، ص ١٣٤ – ١٣٥ .

(١٣٧) نفسه ، ص ٦٥ – ٦٦.

(١٣٨) نفسه ، ص ١٣٠ . قهرمانة : مدبرة البيت ومتولية شـــؤونه (مـــع) ، ومنه القول المأثور : " المرأة ريحانة ، وليســـت قهرمانـــة " ، ابراهيـــم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية بطهران . جعـــبر : قلعة على الفرات ، بين بالس والرقة ، قرب صفيـــن (معجـــم البلـــدان) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر (معجم البلدان) .

(١٣٩) نفسه ، ص ١٣٢ . وانظر : ص ٥٣ .

(١٤٠) نفسه ، ص ١٣٨ . طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحـــيرة طبرية ، وهي في طرف الجبل بالغور ، من اعمال الاردن ، وفيها عيـــون ملحة حارة بنيت عليها حمامات (معجم البلدان) ، وهي الان محتلة مـــن قبل اليهود منذ عام ١٩٤٨ . وسمطوه : غمسوه في الماء الحار لإزالة مـــا على جلده من شعر طبخه او شيه .

(١٤١) نفسه ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(١٤٢) نفسه ، ص ١٣٩ – ١٤٠ . وانظر : جاسر ابو صفية ص ١٠٠ .

(١٤٣) نفسه ، ص ٦٥ .

(١٤٤) نفسه ، ص ١٣٥ .

(١٤٥) نفسه ، ص ١٣٦ . نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبليـــن مستطيلة ، كثيرة المياه (معجم البلدان) احتلها اليهود عام ١٩٦٧ ، وهـــي الآن بيد السلطة الوطنية الفلسطينية .

(١٤٦) نفسه ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(١٤٧) نفسه ، ص ١٣٧ . وانظر : محمود الشرقاوي ، ص ١٢٤ . صـــور : مشهورة ، مشرفة على بحر الشام (معجم البلدان) .

(١٤٨) نفسه ، ص ١٣٧ .

(١٤٩) نفسه ، ص ٦٥ .

(١٥٠) نفسه ، ص ٦٤ .

(١٥١) نفسه ، ص ٦٥ .

(١٥٢) نفسه ، ص ٦٤ .

(١٥٣) نفسه ، ص ٦٧ .

(١٥٤) نفسه ، ص ٦٩ .

(١٥٥) نفسه ، ص ٤٨ . شفار الحربة : حدها .

(١٥٦) نفسه ، ص ٧٠ – ٧١ .

(١٥٧) انظر : مقدمة محرر كتاب الاعتبار ص ز ، ع .

(١٥٨) الاعتبار ، ص ١٣٢ – ١٣٣ . المنيطرة : حصن بالشام قريب من طرابلس (معجم البلدان) .

(١٥٩) نفسه ، ص ١٣٣ – ١٣٤ .

(١٦٠) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفراء ٢/٤ ، ص ٨٦ ، تحقيق د. حسن الشماع ، مطبعة حداد ، البصرة ١٩٦٧ .

(١٦١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٠ ، ٢٧١ .

(١٦٢) الاعتبار ، ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

(١٦٣) نفسه ، ص ٨١ ، ١٣٤ ، ١٣٩ .

(١٦٤) نفسه ، ص ١١١ .

(١٦٥) نفسه ، ص ١٩٦ .

(١٦٦) نفسه ، ص ٦٥ ، ٨٧ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ .

(١٦٧) نفسه ، ص ٧١ ، ١٣٥ .

(١٦٨) نفسه ، ص ٢ ، ١٧ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٩١ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤٨ .

(١٦٩) نفسه ، ص ٢ ، ١٠ ، ٦٤ ، ١١٤ .

(١٧٠) نفسه ، ص ١٣١ .

(١٧١) نفسه ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(١٧٢) نفسه ، ص ١٤٠ . وانظر ص ١٣٠ – ١٣١ .

(١٧٣) نفسه ، ص ٥١ .

(١٧٤) نفسه ، ص ٧٩ .

(١٧٥) نفسه ، ص ١٢ .

(١٧٦) وللاستزادة من هذه المصطلحات ، انظـر : ص ١١ ، ٣٤ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦ . وانظر : مقدمة المحرر ص ت ت – ذ ذ .

المصادر والمراجع:

(١) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة العلمية بطهران ، ؟.

(٢) د. احمد رمضان ، المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحـــروب الصليبية ، الجهاز المركزي للكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

(٣) ابن الاثير ، عز الدين : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيـــة بـــالموصل ، تحقيق عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنـــى ، القـــاهرة وبغداد ، ١٩٦٣ .

(٤) اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحرير فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ١٩٣٠ .

(٥) ابن أبي اصيبعة ، احمد بن القاسم : عيون الأنباء في طبقـــات الأطبـــاء ، طبع مصر ١٢٩٩ هـــ .

(٦) ابو الحسين ، محمد بن احمد : رحلة ابن جبير ، دار صـــادر – بـــيروت ١٩٨٠ .

(٧) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، طبع مصر ١٣٤٩ هـــ .

(٨) الزبيدي ، طبقات النحويين ، طبع مصر ١٣٧٣ هـــ .

(٩) الزركلي ، خير الدين : الاعلام ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦٩ .

(١٠) سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان غي تاريخ الاعيان ، دائـــرة المعـــارف العثمانية ، حيدر آباد ١٩٥١ .

(١١) السيوطي ، جلال الدين : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، طبع مصر ١٣٢٦هـ .

(١٢) د. شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى بلاد الشام ، ضمن كتاب (مؤتمر بلاد الشام : تاريخ بلاد الشام من القرن السادس الى القرن السابع عشر) طبع بيروت ١٩٧٤ .

(١٣) ابو شامة المقدسي ، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية :
(أ) الجزء الاول ، تحقيق محمد حلمي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٢ .
(ب) الكتاب كاملا ، دار الجيل – بيروت ؟ .

(١٤) ابن الشحنة ، ابو الفضل محمد بن محمد : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تحقيق يوسف بن سركيس الدمشقي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، ١٩٠٩ .

(١٥) د. شفيق الرقب ، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري ، دار صفاء للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، عمان ١٩٩٣ .

(١٦) د. عادل جابر صالح محمد ، شعر ابن القيسراني : جمع وتحقيق ودراسة ، الوكالة العربية للنشر والتوزيع بالزرقاء – الاردن ، الطبعة الاولى ١٩٩١ .

(١٧) ابن عساكر ، الحافظ ، تاريخ مدينة دمشق : خطط دمشق م٢ ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٥٤ .

(١٨) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم : تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د. حسن الشماع ، مطبعة حداد البصرة ١٩٦٧ .

(١٩) ابن قاضي شهبة ، تقي الدين ابو بكر بن احمد ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق د. محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ .

(٢٠) القفطي ، علي بن يوسف :
(أ) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبع مصر ١٣٢٦هـ .

(ب) إنباه الرواة على انباء النحاة ، طبع مصر ١٣٦٩ هـ .

(٢١) ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزة بن اسد : تاريخ دمشق ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار حسان – دمشق ١٩٨٣ .

(٢٢) ابن كثير الدمشقي ، الحافظ ابو الفداء : البداية والنهاية ، تحقيق د. احمد ابو ملحم واخرون ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧ .

(٢٣) محمد راغب الطباخ الحلبي ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، طبع حلب ١٣٤٢هـ .

(٢٤) محمد ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦١ .

(٢٥) ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، المؤسسة المصرية العامة للنشر ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق .

(٢٦) ابن واصل ، جمال الدين محمد : مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، دار احياء التراث القديم ، القاهرة ١٩٥٣ .

(٢٧) اليافعي ، مرآة الجنان ، طبع حيدر آباد ١٣٣٧هـ .

(٢٨) ياقوت الحموي :

(أ) ارشاد الاريب الى معرفة الاديب والمعروف بمعجم الادباء ، مطبعة دار المأمون .

(ب) معجم البلدان ، دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٧ .

(٢٩) د. يوسف غوانمة ، شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى : القسم السياسي ، جمعية عمال المطابع التعاونية ١٩٧٩ .

المصادر الاجنبية :

(30) J.Rawer ;Social classes in the crusader states : the Minorities , in K. M. Setton (ed) Ahistory of the Crusaders , VOL I.

المصادر المترجمة :

(٣١) فالترهنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة د. كامل العسلي ، نشر الجامعة الاردنية .

الدوريات :

(٣٢) الهلال ، العدد التاسع ١٩٦٨ .

(٣٣) الجامعة ، العدد الثالث ١٩٦٨ – ١٩٦٩ .